العنف و المرجعيات الدينية للجماعات الإسلامية في الجزائر

الملخص

إن لحظة التوتر تعبر عن نتائج التأويل النضالي المكافح الذي أعطى للإسلام لإحداث التوافق بينه وبين الإيديولوجية الثورية بعد الاستقلال دون النظر إلى الخصوصية الدينية للمجتمع ودون التمييز بين البعد الوجودي والإنساني للدين وأبعاده الاجتماعية والتاريخية، ومنه بدا الإسلام ظاهرة دينية مجردة عامة مفصولة عن تاريخيتا أو مثالا يمكن تضمنها مضامين سياسية، هناك فرق معرفي كبير بين القول عن أي دين أنه يدعو على فكرة معينة)مثلا أو المعاصرة أو العلمنة والقول أنه لا يتعارض معها.

مما لا شك فيه أن العالم قد انتبه أخيرا إلى ما يخلفه الإرهاب من دمار وخراب , وها هم يصدمون مرة أخرى بتفجيرات تطال كل شيء , وفي كل مكان من العالم دون مراعاة لأي ضابط أو محذور , إذن فقد استيقظ العالم بعد أن وصلت إليه أولى تباشير الاعتداءات على الأفراد والممتلكات .

وعلينا أن نسال نحن في الجزائر بعد أن عانينا ما عانيناه من هذا الإرهاب , عن أسبابه ومرجعياته , فإن معرفة الأسباب جزء من الحل لأي مشكلة . و لا بد من نظرة علمية اجتماعية بعيدة عن أي ذاتية أو حب انتقام؛ ذلك هو موضوع هذا العمل.

ومن المهم التذكير بان العنف المسلح في الجزائر هو من أوضح الحقوق للدارسين و ذلك أنه تجمعت فيه ما تفرقت في غيره من البلدان , زمانا ومكانا وحِدّة .

ونحن إذ نبدأ هذا العمل فإننا سنتعامل مع فرضية , والفرضية هنا ليست فروضا بالمعنى السائد في البحوث الكمية , وإنما طرحا نسعى من خلاله مقاربة لشرحه وفهم أبعاده وإثباته .

إن هذا المقال وإن كان ينظر بعين إلى الواقع , فإنه ينظر بعين أخرى إلى المستقبل فيسعى إلى توظيف المادة التاريخية بوسائل المعرفة وأدواتها للخروج بأسباب حقيقية غذت فكر الجماعات المسلحة في الجزائر ، فتقدم نتائجه لمن يهمه الأمر من سياسيين وأصحاب القرار, ومن علماء الدين المسلمين الذين تقع عليهم مسؤولية جسيمة في كبح جماح العنف لدى الجماعات المسلحة . ويسهم البحث أيضا في إنضاج فكر علمي يهتم بفكر الجماعات المسلحة ودراستها دراسة اجتماعية ؛ ذلك أن الأفكار هي التي تشكل الجماعات وليست الجماعات هي التي تشكل الأفراد. والرجال هم نتاج الأفكار، فكما هي أفكارهم يصبحون، كما قال المهاتما غاندي. والأفكار تتشكل كما تتشكل السُحب، فلا بُدَّ لها من رياح لكي تُمطر. وكانت رياح هذه الأفكار الآن هي الإرهاب.

يسعى هذا المقال للبحث في علاقة العنف المسلح " الارهاب-" بالتدين وأنماطه ، و الربط بين الإرهاب و نمط من الدين تصورا وسلوكا , بغض النظر عن صوابه أو خطئه , فبحثنا علمي يتبنى إثبات العلاقة أو نفيها بين العنف و التدين الخاطئ , وأن هذا الأخير هو الدافع للعنف .

العنف عند الجماعات الإسلامية المسلحة له مرجعية دينية : من الواضح جدا أن سلوك العنف لدى الجماعات المسلحة له مرجعية دينية ؛ نقصد بالمرجعية الدينية هنا أن هي تلك الأفكار الدينية التي يحملها هؤلاء المسلحين والتي تدفعهم لوحدها إلى سلوك طريق تقتيل الآخرين وتكفيرهم . نعم قد تتغذى بروافد أخرى كالفقر والنقمة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية و ولكن الدين هو الدافع ، وليس المقصود بذلك أن

الدين الإسلامي دين عنف بل إن التدين وهو تمثلهم للدين في صور تفسيرية يختاروها لأنفسهم هو الذي يدفعهم إلى ذلك .

والمتأمل يكاد يجزم بإثبات الفرضية السابقة، ويثبت ذلك كثير من :

– إن أهم ما يحرك الجماعات المسلحة هو التنظير التكفيري, الذي يعتمد على الحكم على الآخرين بالخروج من ربقة الدين ، وتفيسقهم والتعامل معهم بما يفرضه منطق التعامل مع الكفار من سبي النساء واستحلال الدماء و الأعْراض والأموال .

هذه الأفكار التي يتنفس بها المسلحون هي نتاج تصور ديني يفرض عليهم القتال لأنهم مُطالَبُون به على حسب زعمهم . إذن العنف لدى الجماعات المسلحة في الجزائر له خلفية دينية , يعـــــــتقدون بأنهم سيعاقبون بتركهم له , وهم مثابون مأجورون ينالون الثواب الذي ينتظرون في الحياة الأخرى..

وهذا الذين وصفنا به الجماعات المسلحة في الجزائر ، له إرهاصات عبر التاريخ , ففي الزمان الذي يلي وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظهرت فرق تكفيرية كالخوارج الذين كفروا المسلمين بدواع دينية أيضا , فيعتقدون حلية دمهم بحجة دينية وهي أنهم كفار ؛ بعضهم قبل التحكيم مع معاوية , والبعض الآخر وقف موقف المتفرج – على حد زعمهم –.

وما يدل على إثبات ما افترضناه آنفا , هو أن استجابة الإرهابيين للنداءات التي أطلقها علماء مسلمون للكف عن ذلك مستدلين بأحكام الشريعة , ومصححين للنظرة الدينية التي نهج بسببها هؤلاء طريق العنف .

حيث جاء على لسان بعض الصحف الجزائرية مثلا ما يلي :" سلم 18 إرهابيا ينتمون إلى الجماعة السلفية أنفسهم إلى فرقة الدرك الوطني بالخميز، في أعقاب العمليات

الانتحارية التي شهدتها مدينتي باتنة ودلس وقال هؤلاء الإرهابيون أنهم سلموا أنفسهم عقب سماعهم لفتوى يوسف القرضاوي والتي دعا من خلالها المسلحين إلى العودة إلى المجتمع والتخلي عن العمل المسلح باعتباره عملا منافيا للدين . وقالت المصادر الأمنية التي كشفت عن الموضوع أن هؤلاء الإرهابيين قد سلموا أنفسهم لقوات الأمن أسبوع فقط من النداء الذي وجهه يوسف القرضاوي والذي دعا من خلاله الجماعات الإرهابية إلى التخلي عن العمل المسلح، في أعقاب العمليات الانتحارية التي شهدتها باتنة ودلس، ويعود تأثير كلمة رئيس الإتحاد العالمي لعلماء الإسلام باعتبار أن أعضاء هذه الجماعة من قدامى المسلحين، حيث يعود التحاق أحدهم بالجماعة المسلحة إلى سنة 1995.

ويبدو اتفاق جل علماء الإسلام، رغم اختلاف مشاربهم ومذاهبهم على إدانة ما يحدث في الجزائر من الدوافع التي جعلت بعض العناصر تسلم نفسها لقوات الأمن في مختلف جهات الوطن.كما نقلت ذلك الصحف اعتمادا على فتاوى العلماء تثبت أن للدين سلطانا في التحرك نحو الإرهاب أو منه . " (1)

ومما يجدر التذكير به ونحن نستعرض الكلام السابق التأكيد على ان بعض العلماء ممن أكد على عدم شرعية العنف وسيلةً لفرض الآراء على الناس , كان إلى زمن قريب مستباح الدم من طرف هؤلاء . فقد قتل على أيدي الجماعات المسلحة علماء دين رفضوا الإفتاء والترخيص لهم بمزاولة العمل الإجرامي كالمرحوم بوسليماني محمد الذي اغتيل لذلك .

ويجدر أيضا التذكير بخطأ اعتقاد كثير من الدارسين المتحاملين على يوسف القرضاوي الذي اتهم بتشجيع العمل المسلح و وهذا عير دقيق , وإلا لما استقبله عُمدة لندن واحتفى به مؤخرا , وهذا التنبيه رد على ما ذكره الأستاذ " هشام محمد الخرك " في مقاله :

(البيان الأممي ضد الإرهاب) و 3000 توقيع ..... على ماذا تعني؟ , حين قال :" القرضاوي هو داعية الفكر التكفيري. فقد قام بتكفير كل من يدعو إلى العلمانية وفصل الدين عن الدولة. وهو بذلك قد كفّر معظم المثقفين العَلمانيين العرب، وكفّر كذلك معظم الدول العربية شبه العلمانية أو التي في طريقها إلى العلمانية وقال: "إن المسلم الذي يقبل العلمانية أو يدعو إليها، قد تنتهي به علمانيته إلى الكفر البواح والعياذ بالله" (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ص 73) ..... أفلا يستحق القرضاوي بعد هذا كله، وبعد أن أفتى قبل غزو العراق بالوقوف إلى جانب صدام حسين والقتال معه (أنظر فتوى القرضاوي لنُصرة فرعون" 2003/3/14)، أن يكون متطرفاً لا وسطياً بفتاويه، أن يوضع في قفص واحد مع ابن لادن، بل في قفص أصغر من قفص ابن لادن، وأغلظ قضباناً؟

– إن العلاقات الوطيدة بين الجماعات المسلحة في الجزائر وغيرها من الجماعات الإسلامية المسلحة , ليفرض وجود رابط قوي أسس تلك العلاقة ، ولا يكون هذا إلا دافعا روحيا موحدا بين الجماعات في انتهاج أساليب العنف المسلح . جاء في شبكة الأنباء المعلوماتية ما يؤكد ذلك :" لكن بنهاية السنة الماضية، اقتصرت العمليات المسلحة التي تقوم بها هذه الجماعة الإسلامية على المناطق الجبلية، شرق الجزائر العاصمة، وفي منطقة القبائل، شرق البلاد.

وقد رفضت هذه الجماعة دعوة الحكومة الجزائرية للعفو عن المسلحين، بل وأعلنت ولائها لتنظيم القاعدة في سبتمبر الماضي، وغيرت اسمها إلى "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" منذ حينها.

وعبر ثاني أكبر قادة القاعدة، أيمن الظواهري، عن ترحيبه بهذا الانضمام الجديد قائلا إنه " نابع من الشعور بالنكد والإحباط والحزن" من السلطات الجزائرية. "

أسبق "من الناحيتين الزمنية والوجودية على كل دلالة سمعية وبصرية "وعملية الانتقال من الخيال أو الصور إلى الأفكار المعقلنة يتم بواسطة الحصر التدريجي والتضييق لمعاني الاستعارات، "ومعنى الاستعارات هذا هو ناتج الدلالة الذي يصدره الخيال لتتولد منه كل الأفكار المعقلنة وتفرعاتها اللغوية"(3).

لقد حدث التحول فعلا عند شباب المدن من الإسلام الشعبي أو التصوف الطرقي إلى الإسلام النضالي خاصة في مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي تحت ضغط الحاجات الاجتماعية من ناحية، ومن ناحية أخرى بتصورات ذهنية للإسلام الفقهي والسياسي أو الثوري كما هو منصوص عليه في الميثاق الوطني (1976)المفصول عن أسسه الوجودية التي تقيم الوجود على المحبة والتسامح والسلم وكل القيم الإنسانية الخالدة، .لقد فرض هذا التصوير نوعا من التلفيق بين مفهوم علموي للتأصيل والتطور التكنولوجي في الإستراتيجية الثقافية للدولة، مما يسفر لنا أن أغلبية المتعلمين في الحركات الإسلامية من الشعب التقنية.

لقد عمق لحظة التوتر هذه ارتباط الإسلام الإصلاحي والرسمي بالتوجيهات الإخوانية والوهابية التيماوية(نسبة إلى ابن تيمية) حيث نجد أن من بين المبادئ الأساسية التي على خطاب هذه الجماعات نجد مبدأ الجهاد . وهذا ما يلخصه عنوان الكراس الصغير الفريضة الغائبة وضعه محمد بن عبد السلام فرج و هو احد رموز هذا التيار ويعني بالفريضة الغائبة الجهاد الذي يرى فرج انه مهمل عند جميع الدعاة الإسلاميين ذلك إن إقامة الدولة الإسلامية و الخلافة الإسلامية لن يتحقق إلا بالجهاد و محاربة و مقاتلة الحكام الذين يطبقون أحكام الكفر . وقد انتهت جماعة الجهاد انطلاقا من تعاليم صاحب الفريضة الغائبة إلى إباحة دم كل الذين يحكمون بغير شرع الله و ذلك باعتماد أسلوب الاغتيالات كما حدث في عدة حالات (اغتيال وزير الأوقاف المصري سنة 1977 واغتيال الرئيس المصري السادات سنة 1981 واغتيال فرج فودة 1992 ...الخ) . ويتم تبرير هذه

الاغتيالات انطلاقا من فتوى لابن تيمية " كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الطاهرة و المتوثرة فانه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وان نطقت بالشهادتين" وتبقى المسالة المركزية في فكر هذه الجماعة هي العلاقة بالنظام و بالسلطة الحاكمة في مصر و يضاف إليها الشعب المعزول في الجزائر . هاته الفتاوي و غيرها هيمنت على منابر صناعة الوعي بالدين والتاريخ وعمقت حالة الاغتراب عن التاريخ الثقافي الجزائري ويتجلى ذلك بشكل محسوس في أشكال اللباس وعمران المساجد (4).

إن كل ما سبق ذكره يحاول تبيان أن الأزمة التي تمظهرت في أعنف أشكالها كإرهاب لا ترجع إلى أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية فحسب، بل إن الأسباب الثقافية بوصفها تمثل الأطر المرجعية تساهم بشكل أساسي في حدوث الأزمة وفي تحديد شكل وصورة الأزمة، لذا أخذ الإرهاب شكلا دينيا وليس شكل إيديولوجي وضعي . تفاديا لإعادة إنتاج الأزمة وإعادة بناء لحظة التأسيس التي لم تكتمل بعد، نظرا للعنف الرمزي الذي تعرضت له المنظومة الرمزية للمجتمع الجزائري بطريقة لا واعية، بسبب الانتقال الذي اوصلنا إلى لحظة التوتر التي تحكمها آليات التهميش والإقصاء، يجب تعميم دراسة المناهج المعاصرة في العلوم الإنسانية على جميع أقسام الدراسات الإسلامية والإنسانية، والتركيز على إعادة بناء الوعي التاريخي الوطني على أساس المناهج العقلانية المعاصرة لا أساس أسطوري.

يجدر بنا ونحن نختم هذا المقال أن نذكر بأن تأثر الجماعات الإسلامية المسلحة بالمرجعية الدينية ، قد ساهم في تأجيجه عوامل عدة منها :

– ضعف القدرة في التعامل مع أفكار هذه الجماعات , حيث لا تملك الجزائر , مثل باقي دول المغرب العربي مرجعيات دينية يتحاكم إليها الناس , وهو ما ولّد فقد ثقة بين الرعية والحاكم , ساهم في استيراد تلك الأفكار الغريبة عن المجتمع والتي تنبذ التمذهب

بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني , والتي طالما كانت عوامل حصانة هذا المجتمع

يدل على هذا هو نسبة الإقبال الكبير للجزائريين وعموما سكان شمال إفريقيا على حصص الفتاوى في القنوات العربية الفضائية , وما يؤدي إليه ذلك من الانبهار بكل ما هو آت من المشرق فكرا وسلوكا ومدونات .

فبالرغم من تعدد وتنوع أسباب المد الأصولي و الجماعات المسلحة من أسباب ثقافية و اجتماعية و سياسية و اقتصادية و تعليمية ....إلا وان استراد هاته الفتاوي التي لاتراعي بدورها هاته الخصوصيات هي التي منحت هذه الاستمرارية و الصلابة أحيانا لهذه الجماعات المسلحة.

الهوامش:

1/ سعيد الكحل ، الحوار المتمدن ،عدد1935، 2007/06/03

2/ ألفريد بل —الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم —ترجمة :عبد الرحمان بدوي دار الغرب الإسلامي ط 2بيروت 1981

3/ جلبير دوران —الأنتروبولوجيا، رموزها، أساطيرها، أنساقها، ترجمة :مصباح الصمد،

4/ إبراهيم أعراب ، الإسلام السياسي و الحداثة ، إفريقيا الشرق —المغرب الطبعة الأولى 2000 ص 62.

المحور الثاني

الخطاب الديني وفكرة التسامح